عملي، الى ان رأيت ستة فرسان يقتربون وانطونيو في اعقابهم يخب بكثير من الحذر فقمت استقبلهم واعلمهم ان الشقي قد فر منذ ساعتين.

طفق عريف الكوكبة يستجوب العجوز فاقرت بانها تعرف النافارو منذ أمّ دارها لاول مرة، لكنها لم تجسر على الوشاية به والمخاطرة بحياتها لانها تعيش وحيدة. واضافت قائلة: ان رحيله في نصف الليل هو عادة متأصلة فيه.

اما انا فقد اضطرني الفرسان الى قطع عدة فراسخ لعرض جواز سفري على حاكم المنطقة وامضائه تصريحاً لي بالتنقل. وبعد اتمام هذا، سمح لي باستئناف تحرياتي الاثرية. اما انطونيو، فقد بقي حانقاً علي اذ ارتاب في اني كنت السبب الحقيقي الذي حال بينه وبين دوقياته المائتين. ومع كل هذا، فقد افترقنا في قرطبة صديقين على اتم الصفاء ولم انس ان انفحه باجرة سخية على قدر طاقة جيبي.

الفصل الثاني

قضيت بضعة ايام في قرطبة، وهناك انبئت بوجود مخطوط في مكتبة الاباء الدومنيكان، فيه بعض المعلومات القيمة عن «موندا» القديمة. فتوجهت الى الدير، فرحب بي كهنته الاتقياء و مكثت بضعة ايام في ديرهم، وكنت اخرج في الاماسي اجوب انحاء المدينة.

عند مغيب الشمس، يجد المرء في قرطبة، عدداً كبيراً من المتنزهين يتنزهون على الرصيف المحاذي للضفة اليسرى من نهر «الوادي الكبير». ان المرء ليشم هناك، الروائح المنبعثة من المدبغة التي حفظت شهرة البلاد القديمة في صناعة الجلود. وقد عوّض عن هذه الرائحة الكريهة، منظرُ رائع فاتن! اعتاد الكثير من النسوة- قبيل قرع ناقوس صلاة الغروب[٨] ان يتجمعن على ضفة النهر المحاذية للرصيف الشاهق. ولم يكن احد من الرجال يجسر على الدنو من هذه الجماعة. ان قرع ناقوس صلاة الغروب معناه مجيء الليل. فما ان تتلاشى رنة القرعة الاخيرة، حتى يخلع النسوة ثيابهن ويقذفن بانفسهن الى الماء. وتتعالى

٨- صلاة فريضة مسيحية تتلى في اوقات الصبح والظهر والعشاء، ويعلن عنها بدقات الناقوس، ويطلق عليه باللاتينية Angolos اي (ناقوس ملاك الرب).

الصرخات والقهقهات ويرتفع ضجيج يصم الاذان، ويقف الرجال في اعلى الرصيف يمطون باعناقهم، ويجيلون الطرف، فلا يرون شيئاً كثيراً!

مهما يكن، فان تلك الاجسام الناصعة، وهي تتخلل موجات الماء القاتمة الضاربة الى لون البنفسج، لتطلق الخيال الشعري من اساره فيندفع محلقاً في اجواء الفن. ولن يصعب عليه ان يتمثل مشهد «ديانا وحورياتها وهن في البركة لايخشين من القضاء المحتوم الذي جاء باكتيون»[٩].

نبئت ان جماعة من الخلعاء المستهترين، جمعوا مرة- مبلغاً من المال رشوا به قارع ناقوس الكنيسة ليقدم موعد القرع عشرين دقيقة. اما حوريات «الوادي الكبير» فلم يترددن في نزع ثيابهن مع ان الوقت كان نهاراً لقد وضعن ثقتهن في الناقوس اكثر من الشمس، وتهيأن للاستحمام خاليات الذهن عن كل شيء، وببساطة تامة شأنهن في ذلك دوماً! اني لم اكن حاضراً يومها. ثم ان قارع الناقوس في زماني مخلص في عمله نزيه، كما وان

٩- ديانا واكتيون Diana, Actaeon بطلا خرافة يونانية مشهورة ملخصها ان اكتيون بن ملك قدموس خرج مع رفاقه للصيد، فانقطع عنهم وقادته قدماه الى كهف «ديانا» آلهة الصيد وكانت محاطة بحورياتها وهن يعرينها، ورآها عارية ورأته فغضبت واخذت شيئاً من ماء الالهة ورشته عليه فسحرته ثوراً وحشياً فانطلق عائماً، وادركه رفاقه ومعهم كلاب الصيد، وطاردوه حتى قتلوه، وبذلك تم انتقام ديانا ممن شهدها عارية، وأرى ان القارئ يدرك مقابلة المؤلف بها هنا.

ظلام الغسق لايسمح لاحد سوى القط - ان يميز بين اقبح بائعة برتقال، واجمل عاملة قرطبية.

في مساء احد الايام، وفي ساعة يتعذر على البصر ان يتوضح شيئاً، كنت متكئاً على سور الرصيف وانا ادخن لفافة تبغ، فاذا بامرأة ترتقي الدرجات المؤدية الى النهر، حتى اذا دنت مني افترشت الارض. رأيت باقة من زهر الياسمين مضفورة في شعرها يضوع منها اريج مسكر نفذ الى منخري. كانت بسيطة الثياب رخيصتها سوداءها، شأنها في ذلك شأن اكثر عاملات المدينة اثناء الليل. ان العقائل لايرتدين الاسود من الثياب خلال ساعات النهار. اما في النهار فيلبسن على الزي الفرنسي.

ولما وقفت الى جانبي، حسرت عن رأسها واسدلت ملاءتها على كتفيها فتأملتها على ضوء النجوم فاذا بها صغيرة السن ممشوقة القد، دعجاء العينين الى درجة تستلفت النظر. رميت لفافتي في الحال، فادركت الصبية مغزى هذا الالتفات الذي هو محض تأدب فرنسي، واسرعت تقول انها تستطيب رائحة التبغ، وانها نفسها تدخن التبغ، وكان في صندوق لفافاتي عدد من النوع الذي وصفته فاسرعت بتقديم بعضها، فتنازلت وقبلت واحدة واشعلتها من نهاية فتيل جاء به صبي فنفحته بصلدي[١٠].

ورحت ادخن ملياً انا والسابحة الحسناء ونتبادل مختلف

١- الصلدي Sou عملة اسبانية تعدل فلساً او نحوه.

الاحاديث. وما شعرنا الا والرصيف مقفر تقريباً. فلم اجد غضاضة في دعوتها الى تناول المثلوج في (نفيريا -Never ia)[١١] فقبلت بعد تردد لكنها ارادت ان تتأكد من الوقت. فاخرجت ساعتي ونَصَبتُها فدقت. ويبدو ان صنيعي هذا اورثها دهشة عظيمة اذ قالت لي:

- ما اعجب مخترعات بلادكم ايها الاجانب! من اي بلد انت يا سينور؟ انكليزي بدون شك[١٢].

- خادمك المخلص، فرنسي الوطن، وانت ايتها الانسة او السيدة اظنك قرطبية؟

- كلا.

- اذن فمن اندلوسيا على الاقل. يتبين لي هذا من رطانتك الخفيفة.

- ما دمت قادراً على تمييز جنس المرء من لكنته، فيجب ان تكون قد تبينت حقيقة امري.

- اظنك «من بلاد السيد المسيح، على بعد خطوتين من

١٢- مقهى عادي فيه دار ملحقة، تبيع الثلج. وان شئت تدقيقاً فهو مستودع للثلج لاغير. ولا تكاد قرية واحدة تخلو من امثال هذه المقاهي في اسبانيا (ملاحظة المؤلف).

١٢- كل سائح اجنبي في اسبانيا لايحمل اقمشة حريرية او كتانية يدور بها للبيع، يعد انكليزياً. كذلك الامر في الشرق. فقد تشرفت في مدينة «خلقيس» بان سميت «ميلوردكي فرانتز سوكسل» (المؤلف) (نقول: وهذالفظ اغريقي للتعظيم. وربما كان المؤلف يقصد بخلقيس الميناء الحالي الاغريقي «كالديس».

الجنة! »

وكنت قد لقنت هذه العبارة التي تشير الى بلاد اندلوسيا، من صديقي مصارع الثيران الاشهر فرانشسكو سڤيلا Franncisco Sevilla » فاجابت:

- بخ بخ! الجنة! الناس هنا يقولون انها ليست لامثالنا.

- اذن فانت مراكشية او ...

(ولم اجسر على لفظ كلمة «يهودية»).

- اوه، لاتمزح انت تعلم جيداً باني غجرية، الا تريد ان اقرأ لك الباجي Baji (البخت)؟ الم تسمع بكارمنسيتا؟ انا هي.

ومر على اهمالي امور الدين خمس عشرة سنة. لذلك لم اتحرج او انكص على عقبي حين وجدت نفسي اماشي عرافة. قلت في سري «بورك فيك يا نفس. قبل اسبوع تغذيت مع قاطع طريق، والان تصحبين احدى سادنات جهنم الى محل لتناول المثلوج؟».

لامفر للمسافر ان يصادف اموراً كثيرة. ولقد كان لدي باعث اخر يدفعني الى توثيق صلتي بها. وهنا اقر وانا خجل باضاعتي وقتاً طويلاً في دراسة «الاسرار» بعد تركي الكلية. حاولت مراراً ممارسة الرقى والسحر واستحضار الارواح من اعماق الظلام. ومع شفائي من هذه التتبعات، فما زال عندي والحق يقال، فضول وحب استطلاع في امور الدجل وضروب السحر والشعوذة. لذلك هنأت نفسي وحمدت الصدف التي ارسلت لي هذه العرافة لتوضح لي مدى تقدم «فنون السحر» عند معشر الغجر.

دخلنا المقهى ونحن نتبادل مختلف الاحاديث ثم جلسنا الى خوان صغير تنيره شمعة ضئيلة الذؤابة ركزت داخل اسطوانة زجاجية. واتيحت لي الفرصة لا تأمل الغجرية عن كثب. ،لاحظت كذلك بعض المواطنين المحترمين يرمقونني بنظرات الاستنكار والدهشة وهم يتناولون مثلوجهم لرؤيتهم لي مع رفيقتي الجميلة.

قوي شكي في ان الانسة (كارمن) ليست غجرية خالصة او انها على الاقل اجمل من عرفت من بنات جنسها. يقول الاسبان: ان المرأة التي يصح نعتها بالجمال يجب ان تؤيد وسامتها بثلاثين (نعم) اعني يجب ان ينطبق على محاسنها عشر صفات كل واحدة منها تجمع ثلاث محاسن في جسمها. فمثلاً يجب ان يكون فيها ثلاث شيات سوداء: عيناها، هدباها، حاجباها. وثلاث شيات تمتاز بالرقة والطراوة: يداها، شفتاها، ضفيرتاها. وغير ذلك حتى تكمتمل الصفات العشر، مما تجده في كتاب «برانتوم- Brantome»[١٣] اما غجريتي، فلا سبيل لها الى الادعاء بهذا الكمال، فبشرتها حنطية وان كانت نقية سليمة من الكلف. اما عيناها قنجلاوان دعجاوان قليلتا الانحراف. وشفتاها غليظتان لكنهما بديعتا التكوين تنفرجان عن صف الاسنان الناصعة الشبيهة باللوز المنظوم. وشعرها اسود فاحم فيه بعض الخشونة

١٣- بيير دي بورديل برانتوم (١٥٤٠-١٦١٤): مؤرخ فرنسي عرف بكثرة سياحاته في اسبانيا والبرتغال. والمقصود هنا كتابه المسمى «سيدات متحررات Dames Tesgalon» وفيه رسم صورة دقيقة رائعة لبلاط الملوك ومقدار تفسخه في ذلك العصر.

تخرج منه موجات زرقاء شبيهة بموجات جناح الديك، وهو طويل مسترسل في الوقت نفسه، صقيل لامع جداً.

ولن اشغلك بالتفاصيل والجزئيات بل اقول باختصار ان كل عيب فيها يضفي عليها حسناً وفتنة جديدة لانه ينسجم مع غيره. كان جمالها جمال الفطرة والبداوة. وجهها يفتنك لاول نظرة فلا تعود تستطيع نسيانه. وفي نظراتها قسوة وشهوة معاً، وتلك بادرة لم اجدها في شخص آخر. يقول المثل الاسباني «عين الغجرية، كعين الذئب» وفي هذا القول دقة عظيمة. فان لم يتسن لك الذهاب الى حديقة الحيوان ومعاينة الذئب، فلك ان تتأمل قطك وهو يكمن لطير!

لاشك ان قراءة البخت في مقهى انما هو الفضيحة بعينها فرجوت العرافة الحسناء ان تسمح لي بمرافقتها الى دارها، فوافقت بلا تمنع لكنها ارادت ان تتثبت من الوقت فطلبت مني استشارة ساعتي، فاخرجتها، فقالت وهي تتأملها باهتمام عظيم:

- اهي حقاً من الذهب الخالص؟

عندما غادرنا المقهى، كان الليل قد عسعس واغلقت الحوانيت واقفرت الازقة تقريباً. قطعنا جسر «الوادي الكبير» وواصلنا السير الى آخر ضاحية من ضواحي المدينة وكانت خاتمة المطاف. وقفنا امام دار هي بمختصر القول -ليست قصراً ففتح صبي الباب وولجنا، وحادثته بلغة غريبة لم اتبين منها غير كلمتي «روميني وجيب كاللي، Rommaini Chipe calli» وهما لفظتان تطلقان

على الغجري قادنا الصبي الى غرفة رحيبة ليس فيها من الاثاث غير منضدة صغيرة ومقعدين وصوان ولا انسى جرة ماء وكومة من البرتقال، وحبلاً مشدوداً في فضاء الغرفة فيه بصلات.

استقر بنا المقام وخرج الصبي فصرنا وحدنا. فقامت الغجرية واخرجت من صوانها مجموعة من ورق اللعب بليت من كثرة الاستعمال، ومغنطيساً، وحرباء محنطة، واشياء اخرى ضرورية لممارسة سحرها. ثم انها اشارت عليّ برسم خطين متقاطعين في راحة يدي اليسرى بقطعة من النقود. واخذت مراسيم السحر تترى. لا ارى هنا اية فائدة في نقل تفاصيل شعوذتها وكهانتها، على ان طريقتها كانت تدل بان يدها يدا استاذ متمرس قطع مرحلة بعيدة في ممارسة هذه الحرفة، لا يد تلميذ قليل الخبرة. ولسوء الحظ، عكر علينا صفونا ان فتح الباب بعنف واقتحم الغرفة رجل يخفي عينيه بطرف معطف بني اللون. وقف واخذ يكلم الغجرية بلهجة خلت من اللطف والرقة لم افهم منها شيئاً لكن اسلوب الحديث دلني على مبلغ هياج المتطفل وغضبه. ولحظت ان انظار الغجرية التي صوبت اليه حال دخوله، لم يكن فيها شيء من الدهشة او الغضب. كل ما فعلته الغجرية هو انها اقبلت عليه تخاطبه بتلك اللهجة التي سمعتها منها منذ هنيهة، لكن بسرعة وطلاقة عجيبتين. بدا لي ان كلمة پيلو Payllo التي افهمهامن دون كل الكلمات لكثرة ترديدها. كنت اعلم ان الغجر يستعملونها للاشارة الى الغرباء. ماذا لو كان الكلام يدور